تقديم

هذا الشاهد .. وهذا العصر!

ليس الإنسان فيلسوفاً بالطبيعة ، ولا فيلسوفاً بالفطرة ، وإنما هو فيلسوف عندما يوجد ما يدعوه إلى التفلسف ، فالفلسفة استجابة ذهنية ، كالشعر استجابة وجدانية ، لما فى الواقع من دوافع ودواع ، أو هى تعبير عن ذوات العقول كما أن الشعر تعبير عن ذوات النفوس !

بعبارة أخرى . . ليست الفلسفة شيئاً آخر سوى تلك المحاولة التى يراد بها معرفة الله والإنسان والعالم ، وعلاقة كل بالاثنين الآخرين . . وذلك عندما تعترضنا مشكلة خارجية قد تكون طبيعية وقد تكون دينية وقد تكون اجتماعية ، وقد تجمع بين هذه الجوانب فى بعض الأحيان ، المهم هو أن تقوم المشكلة التى تستدعى قيام الفلسفة ، التى هى منها بمثابة رد الفعل أورجع الصدى .

فلكى تكون هناك فلسفة فلابد قبلاً من أن تكون هناك مشكلة ،

obeikandl.com

وفرد يحس بالمشكلة ويحاول أن يضع لها حلاً أو أن يتخذ منها موقفاً ؛ فالفلسفة مشكلة وفرد وما بينهما من علاقة ، أو هى العلاقة القائمة بين ذات وموضوع . . موضوع يعطى المشكلة ، وذات تتعاطى هذه المشكلة ! وليست هناك مشكلة فى حد ذاتها أو مشكلة على الإطلاق ، ولكن مشكلة فى بقعة معينة من المكان ، وفى فترة معينة من الزمان ، وبين تركيبة معينة من المجتمع . . . وعلى هذا الأساس أمكن القول بفلسفة العصر القديم ، وفلسفة العصر الوسيط ، وفلسفة العصر الحديث . . . مادامت المشكلة قديما كانت صراع الإنسان مع الطبيعة ، ووسيطاً صراعه مع الدين ، وفى العصر الحديث هى صراعه مع المجتمع . . وعلى هذا الأساس أيضاً أمكن تخصيص القول بالفلسفة اليونانية والفلسفة الإنجليزية والفلسفة الأمريكية، مادامت المشكلة لدى كل أمة تختلف عنها لدى الأمة الأخرى، إذ البيئة غير البيئة والمجتمع غير المجتمع، وظروف الحضارة غير ظروف الحضارة . وإذا تشابهت المشكلة ، فلا أقل من أن تختلف استجابة كل أمة عن الأخرى ، تبعاً لاختلاف هيكلها الاجتماعى ، وتكوينها الحضارى ، ومنطقها الخاص فى التفكير . . فالفلسفة اليونانية عقلية تعتمد على القياس ، والفلسفة الإنجليزية تجريبية تعتمد على الاستقراء ، والفلسفة الأمريكية عملية تعتمد على مدى ما تحققه الفكرة من نجاح !

وليست المشكلة فى داخل الفلسفة وإنما هى فى الخارج ، أعنى ليست الفلسفة هى التى تولد المشاكل وإنما هى تولد معها ، ويلدها الفيلسوف الذى يحتجزها من تيار الواقع وسيال الحياة ، فيحيلها إلى ذاته ، ويأخذها على عاتقه ، ويخرجها معبرة عن ذاتيته واجتماعيته فى وقت واحد ، فالفيلسوف على الحقيقة هو من لا يحصر نفسه فى المشكلة وإنما ينطلق منها إلى المجتمع

بأسره ، وهو من يجعلها ذات دلالة حتى تتسع فتشمل الآخرين !

« إلغ فيكتور هوجو فلن يمنع ذلك من ظهور الحركة الرومانتيكية فى الأدب الفرنسى ، ولكن أحداً من الناس ما كان يتهيأ له أن يغنى غناءه فى كتابه « البؤساء » و « أوراق الخريف » و « سير القرون » .

وعلى ذلك . . ليس المفكرون عقولاً فقط ، حياتهم خروج على الزمان دخول فى الأبدية ! وأفكارهم صدور عن واحديتهم المطلقة وفرديتهم البحتة ، بل هم بشر وهم أفراد ، يعيشون مجتمعاتهم . . يساهمون فى مشاكلها ويشاركون فى مسائلها ، فيفلسفون حياتها ويحيون فلسفتها . . ومن خرج على هذه الأنماط خرج بالتالى على هذا المجتمع ، ولم يعد يمثل سوى فكره الذاتى ومزاجه الفردى ، أو على حد قول الفيلسوف الكبير برتراند رسل :

« الفلاسفة نتائج وأسباب فى آن معاً ، هم نتائج لظروفهم الاجتماعية ولما فى عصورهم من سياسة ونظم ، وهم أسباب — إن كان لهم الحظ ، فى المعتقدات التى تكيف سياسة ونظم العصور التالية » !

وهذا ما حدث فى الفكر الإسلامى الوسيط حيث الغزالى ، وفى الفكر الإسلامى الحديث حيث العقاد ، وفى الفكر الإسلامى المعاصر حيث مصطفى محمود . الأول يمثل الإيمان ، والثانى يمثل العقل ، ويمثل الثالث العلم أو التجربة . ولكن لندع الغزالى والعقاد جانباً وسنلقاهما فى أثناء السير ، ولنتكلم عن مصطفى محمود . أو بتعبير أدق عن تيار العصر الذى وجد فيه وأوجد نفسه ، وأثر فيه بقدر ما كان أثرًا من آثاره .

والقارئ لموجات التيار فى هذا العصر ، يستطيع أن يردها موجة وراء موجة إلى عاملين رئيسيين يؤلفان فيما بينهما ما يمكن تسميته لا « بالمنهج الجدلى » حيث الدعوة ونقيضها والمركب منهما ، وإنما « بالمنهج التكاملى » حيث

الظاهرة متشابكة مع بقيـــة الظواهر الأخرى ، بحيث لا يمكن دراستها من زاوية واحدة ، ولا فض بكارتها من خلال منظور واحد ، ففى دراستها بمعزل أو على حدة موت لها وقضاء عليها وسلب لما فيها من حياة !

فالوجود الذى نعيش فيه على حد تعبير مصطفى محمود ليس وجوداً مفككاً ، ولكنه وجود متسق منظم تربطه القوانين . . والاختلافات الظاهرية فى الأشياء خلفها وحدة حقيقية ، هذه الوحدة الحقيقية ليكن اسمها ما يكون ، ولكنها على اختلاف المسميات جميعاً . . هى الشىء ، هى الغاية ، هى السبب ، هى الحقيقة ، هى الله !

ونعود إلى هذين العاملين الرئيسيين لنجد أولهما فيما يمكن تسميته بالعامل الاستاتيكى ، والآخر فيما يمكن تسميته بالعامل الديناميكى ، وأقصد بالاستاتيكى كل ما يتعلق بظواهر البيئة ، وبالديناميكى كل ما يتصل بظروف المجتمع . .

فالعقيدة الإسلامية إذا نظرنا إليها نظرة المؤرخ لا نظرة المفـــكر ، أى من حيث ما تركت فى النفس المصرية من آثار لا من حيث ما جاءت به من أفكار ، استطعنا أن نراها وقد طبعت العقلية المصرية بطابع من ينظر إلى الأمور نظرة الطاعة والولاء ، فإذا ما عرضت لها مسألة من المسائل ، أو إذا ما تعرضت لمشكلة من المشكلات . . إما أن ترجعها إلى الدين أو ترفعها إلى الله :

« وأما أهل الحق فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسنة ، فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه ، وشكروا الله عز وجل حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه ، وإن وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم ، وأقبلوا على الكتاب والسنة » .

كما قال جلال الدين السيوطى فى كتابه : « صون المنطق والكلام » .

والذى يعنينا هنا هو أن عقلية كهذه لا تكاد تحل المشكلة إلا بإحالتها إلى مبادئ أولى وغايات بعيدة ، إنما هى فى طبيعتها أو على الأقل فى تطبعها ، عقلية عملية تنكر النظر والفكر من حيث هما كذلك أشد الإنكار ، وتنظر إلى الدين على أنه وضع من أوضاع الحياة الواقعية ، يبدأ بمسلمات تلزم عنها نتائج وبالتالى فهو « ورقة عمل » ، أو « بوصلة » سير ، أو « خريطة » حياة !

ولا يبدأ الأمر عند الدين الإسلامى ، بل يسبقه إلى الزمن القديم ، حيث كان الكهنة كما يقول العقاد ، يستأثرون بالكلام فى أصول الحقائق الكبرى ، وهى حقيقة الخالق والخليقة ، وكنه الوجود والموجودات ، فلا يسمحون لغيرهم بالتشكيك فى العقائد التى يتوارثونها ، وينسجون المراسم والشعائر من حولها ، ويطول الزمن فتجمد هذه العقائد على أوضاع مقررة يعد الخروج عليها خروجاً على عناصر الإيمان ، وخروجاً على نظام الدولة وشعائر الطاعة والولاء » .

وهذا صحيح . . فى الزمن القديم قامت الكهانة مع قيام الدولة ، واستقر سلطان الكهنة إلى جانب سلطان الملوك ، وكما تولى الملوك تدبير شئون العيش ، تولى الكهنة تدبير شئون العقيدة ، فاستأثروا بالبحث فى العلل الأولى والغايات البعيدة ، فضلاً عن شئون التربية والتعليم . وقوى سلطان الكهنة حتى أصبحت هذه المباحث وقفاً عليهم لا ينازعهم فيها غريب ، وحتى اعتبرت كهانتهم من قبيل المقدسات التى لا تهاجم ، وإلا كانت مهاجمتها مهاجمة للدولة نفسها ، ولا يخرج عليها أبداً وإلا كان الخروج عليها خروجاً على الملوك أنفسهم !

وفى الزمن الوسيط قامت الدولة مع قيام الدين ، وكانت مشكلات

الفكر هى نفسها مشكلات الواقع ، وما يدور فى الذهن من أسئلة هو نفسه ما يحتاج فى الواقع الخارجى إلى جواب . . فالنزاع على من يخلف النبى بين المهاجرين والأنصار ، والخلاف على الإمامة بين بنى هاشم وأبى بكر ، والصراع على الدولة بين على ومعاوية . . كل هذا مرتبط بنشأة الخوارج والشيعة ، ومرتبط كذلك بنشأة القدرية والمرجئة ، والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومذهب أهل الحقيقة ومذهب أهل الشريعة ، وفرق الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار !

وهذا معناه أن سبباً من الأسباب التى تنشئ الفرق والمذاهب لم يكن متواغراً بل تهيأ للظهور من جميع نواحيه عند قيام الإسلام ، على أن السبب الذى طوى كل هذه الأسباب جميعاً هو قيام الدولة مع قيام الدين الإسلامى فى وقت واحد :

فالدولة الإسلامية فى ذلك الحين ، كانت دولة مليئة بإمكانيات التوسع والتمدد والانطلاق ، مهتمة بشئون الحكم والملك والسلطان ، وكانت الشعوب التى دخلت الإسلام أو أدخلت فيه ، شعوباً عديدة ذات مشكلات مختلفة ومطالب متباينة ، فلم يكن يمكّن للحضارة الإسلامية إلا أن تكون فى جوهرها « حضارة عمل » ، ولم يكن يمكن للدين الإسلامى إلا أن يكون فى واقعه دين معاملات ، وقد عبر أنس بن مالك عن ذلك بقوله :

« الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه . . ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » .

أما فى العصر الحديث ، فقد تأثر نظام الحكم بسياسة الاستعمار ، وقام الاستعمار فيما قام على دعوى العنصرية ، تلك الدعوة التى كانت

بمثابة «الغزو الثقافى» الذى يسبق «الغزو السياسى» ويمهد له الطريق ، فى القرن التاسع عشر ، كان المجتمع الأوربى يصطرع بنزعات الاستعمار ، ويتأهب لأداء «الرسالة البيضاء» أو «رسالة الرجل الأبيض» وحقه فى تمدين الشعوب المتخلفة أو الشعوب ذوات الألوان .

وانطلقت دعوى الآرية والسامية إلى العالم أجمع عبر مدرستين : إحداهما علمية يتزعمها العالم جوبينو J. Gobineau والأخرى فلسفية يتزعمها الفيلسوف رينان E. Renan، الأول يصطنع المنهج العلمى ويعتمد على الملاحظة الحسية ، والآخر يصطنع النظر الفلسفى ويعتمد على اللغات المقارنة ، وكلاهما زميلان فى حركة الاستشراق ، وكلاهما من فرنسا أحوج دول أوربا إلى الاستعمار والاستغلال فى ذلك العصر !

وليس يهمنا الآن أن نكشف عن سوء الفهم وسوء النية،اللذين ساعدا على ترويج تلك الخرافة التى ترضى غرور الأوربيين ومصلحتهم فى وقت واحد ، وإنما الذى يهمنا هو أن نقف على مدى تأثير هذه الخرافة فى أذهان المصريين ، ومدى تأثرهم بها . . .

فقد وقع فى روع «قادة الفكر» عندنا من صرعى المذاهب الأجنبية، أن الأمة العربية قاصرة فى ميادين الفكر والثقافة ، وأن قصورها لا يرجع إلى أسباب مرحلية تصدق عليها كما تصدق على غيرها ، ولكن إلى أسباب جوهرية فى طبيعة الجنس والسلالة ، وأنه مادامت الحضارة الأوربية المعاصرة فى حقيقتها امتداداً لحضارة اليونان ، ومادامت العقلية المصرية فى أصلها «عقلية بحر أبيض» ، وما دامت الحضارة الإسلامية فى جوهرها حضارة «سالبة» لا «موجبة» و«آخذة» لا «معطية» ، و«مقلدة» غير مبتكرة ، فلا مفر من أن تتلاقى الثقافتان ، فتأخذ الثقافة المصرية من ثقافة

أوربا ، ويتجه الفكر المصرى إلى الفكر الأوربى يحذو حذوه ويترسم خطاه !

تلك هى دعوى العنصرية . . وما أسفرت عنه من الدعوة إلى الحضارة الأوربية ، وما أدت إليـــه من انتشار المدارس التبشيرية ، والحركات الاستشراقية ، والمعاهد الأوربية فى العالم العربى الإسلامى . !

والذى يعنينا الآن ، هو أنه فى هذا الجو الحضارى المريض ، الذى تحطمت فيه بقايا المعنويات القديمة ، واتسعت فيه هوة الفراغ العقلى ، وخلا من الأنماط الثقافية الأصيلة ، ومن أى اتجاه نحو تصور حضارى واضح ، أو بعبارة أخرى خلا من أى أيديولوجية عربية إسلامية تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، أصالة القيم الإيجابية فى تراثنا ، مطورة إلى المفاهيم الفكرية والإنسانية فى هذا العصر ، كان لابد من محاولات رائدة كتلك التى بدأها جمال الدين الأفغانى محرر النفوس ، ومحمد عبده محرر العقول ، وعباس محمود العقاد واضع أسس الأيديولوجية الإسلامية ، ومصطفى محمود صاحب الإسلامولوجيا الجديدة ، أى تلك التى تجعل من الإسلام علماً له حق القيام مستقلاً عن النزعات الفردية أو المذاهب الشمولية ، وعليه واجب الانصهار فى أتون حياتنا اليومية ، وفى خضم معاركنا الكبرى !

وهنا فى هذا التيار . . تيار « الأصالة والمعاصرة » .. الأصالة فى العودة إلى تراثنا الفكرى والروحى الأصيل ، والصدور عنه بما يتوافق ومتطلبات الواقع وروح العصر ، واتخاذه وقوداً حياً فى مشكلاتنا الحياتية ، وقضايانا المصيرية ، نستطيع أن نضع مصطفى محمود لا باعتباره فيلسوفاً أو صاحب مذهب ، ولكن من حيث هو كاتب ومفكر ، تبلورت فيه وتركزت أفكاره ومشاعر كانت ولا تزال شائعة فى عصره ، على نحو مبهم ومبعثر ، فحاول

بوجده ووجدانه ، بوجوده وتواجده ، أن يستوعبها ويتمثلها ، ويعيد طرحها من جديد ، غير منفصل عن أشرف ما فى تراثنا من حقائق ، غير منعزل عن أروع ما فى عصرنا من وقائع !

خاصة إذا علمنا أن الفلسفة الصادقة ليست دائماً نسقاً نظريًّا قائماً على المجردات ، ولا هيكلا صوريًّا عماده الاستدلالات ، وإنما هى أيضاً موقف فكرى بإزاء مشكلات الواقع ، وقضايا العصر !

على أننا إذا كنا سنصادف نظيراً لبعض آراء مصطفى محمود عند الفلاسفة القدامى من أمثال أفلاطون فى قوله بالمثل . . الحق . . والخير . والجمال ، والغزالى فى رحلته الروحية « المنقذ من الضلال » ، وابن عبد الجبار النفرى فى مواقفه وفى مخاطباته للذات الإلهية ، أو عند الفلاسفة المحدثين من أمثال برجسون فى قوله بالوثبة الحيوية والتطور الخالق والحدس الصوفى ، وفرويد فى تفسيره للأحلام على أساس من اللاوعى أو اللا شعور أو العقل الباطن ، وصمويل ألكسندر فيلسوف الزمان والمكان والألوهية ، فلا ينبغى أن يقال إن مصطفى محمود تأثر أو قلد أو لم يأت بجديد ، وإنما الواجب أن يقال إنها : « ثقافة الإنسانية الفكرية » استطاع كاتبنا المعاصر ، أن يحياها ويتمثلها ويستفيد منها ، فترددت فى كتاباته أصداء العصر ، وتشكلت أفكاره بكل ما أسهم فى تكوينها من حقائق أصيلة ووقائع معاصرة . !

ومهما يكن من أمر الأفكار التى تشابهت مع أفكار مصطفى محمود ، والأصداء التى ترددت فى كتبه وكتاباته ، فإن الذى لا شبهة فيه ولا شائبة ، أن مؤلفاته ليست مجرد مرآة انعكست على صفحاتها قراءاته ، وإنما هى قد اشتملت على الكثير من الخطرات الفلسفية ، والمبادئ الأخلاقية ، والنظرات

الصوفية ، هذا بالإضافة إلى الآراء التى يمكن أن يكون لها أثر فى حياتنا الاجتماعية !

فإن « الجانب السلبى » فى كتاباته الذى يتمثل فى معارضته للمذاهب الفلسفية السائدة فى عصره كالماركسية والوجودية والوضعية المنطقية ، فضلاً عن النزعات العلمية المتطرفة القائلة بالحتمية فى العلم الحديث ، لتنطوى معاً على فكر أصيل ومعاصر ، يؤكد أصالته ومعاصرته ، قوله بمنهج الحدس الصوفى ، باعتباره أساساً للمعرفة ، وقوله بوحدة الذات المفكرة والعاملة فى وقت واحد ، باعتبارها قاعدة للفعل ، وقوله بالتضامن الكونى أو تضامن الحقيقة الإنسانية مع الحقيقة الإلهية فى وحدة حية أو حياة واحدة ، وقوله أخيرًا بفكرة العلو أو التعالى ، علو الإنسان على كل ما حوله ، من أجل أن يكشف بهاء الحرية الروحية ، وأن يستعيد يقين الحقيقة العقلية ، وأن يجد الله . هذا بالإضافة إلى تحديده للعلاقة بين الروح والجسد ، وبين الله والإنسان ، وبين الماركسية والإسلام ، وبين الشك والإيمان ، وبين المتناهى واللامتناهى، وبين هذا كله وكثيرة غيره مما يجعل منه بحق كاتباً أصيلاً ومعاصراً . . بل شاهداً على عصره !